علل المجتمع المصرى

للدكتور محمـد صبرى

أحمد بن طولون — أو سمه ما شئت — باشا بن باشا ، له جاه ومال ، درس القانون وحاز الليسانس ثم وثب فى المناصب وأصبح رئيس مجلس شيوخ ثم عضواً فيه ، فاذا كتبت إليه خطابا وقلت « حضرة صاحب السعادة احمد باشا بن طولون عضو مجلس الشيوخ » ثارت ثائرته وصخب بل زأر وبربر وقال « أنا رئيس مجلس شيوخ سابق ووزير سابق فيجب أن تذكر ألقابى » ... حتى فى العنوان الذى لا يقرؤه إلا ساعى البريد وغيره من « سعاة »

وقد بلغ بنا التعلق بالألقاب الجوفاء أن المجمع اللغوى وهو هيئة محترمة اشتهرت بالدقة فى التعبير قد رشحت أخيراً لرئاستها رسمياً سعادة « الدكتور » احمد لطفى السيد باشا ، ولطفى باشا ليس دكتوراً ، ولكنه أستاذ الأساتذة وصربى قادة الفكر الحديث ، وكان يمضى مقالاته فى الجريدة « احمد لطفى السيد » وهذا الاسم فى غنى عن كل لقب وتعريف . وقد يجهل الكثيرون أن احمد لطفى السيد كان الكاتب الأول لرسائل الوفد المصرى إلى مؤتمر السلام إبان الثورة ، وأن مجموعة هذه الرسائل كانت توازى بدقة أسلوبها السياسى وبراعته واتزانه خير ما حادت به القرائح من أمثالها فى الغرب

ولو كانت المبقرية المصرية عبقرية بناء لاعبقرية هدم ، لعرف القاصى والدانى هذه الحقيقة ، ولكان التفاخر بشخصياتنا وآثارهم عاملا من أكبر العوامل التى تساعد على تجديد كياننا وتدعيمه . ولو عرف شبابنا أن هذه الشخصيات المنزوية فى جلالة الصمت وأبهة الشيخوخة — لأنها لا تعرف التهريج — لم تتكون إلا بعد جهد مضن وحياة مملوءة بالتضحية والتعلق بالمثل العليا ، لخففوا من غلوائهم وعلموا أن الوظائف والدرجات ليست هى كل غايتنا فى الحياة ، وانه ليس مما يشرفنا أن تقوم من أجلها فى هذا البلد الطيب ثورة اجتماعية أصبح ضجيجها على الأبواب

ولكن شبابنا قد اندفع فى تيار الديماجوجية الصاخبة فأصبح يضرب عن تلقى العلم ويتلمس لذلك أوهى الأسباب ، وأصبحت الوظيفة مطمحه الأسمى فى الحياة . وقد ساعد بعض قادة أمورنا على انتشار هذه الروح لأنهم يريدون تأييد السواد الأعظم لهم شقيت البلاد أم سعدت (وبعدى الطوفان ...)

وقد أصبح سلطان الوظيفة عظيما فى مصر حتى أن بعض كبار الموظفين المجردين من كل ثقافة يصيرون أعضاء فى لجاننا العلمية « بحكم الوظيفة » وحدها ، ولو أقصتهم اللجان عنها لحاربوها ..

ومن البينات على سلطان الوظيفة ان بعض الوزراء ووكلاء الوزارات لا يكادون يتركون الحكم حتى تعرى الشركات الأجنبية على أحضانهم وتعرض عليهم المناصب الكبرى الصورية أو غير الصورية فى إدارتها . والواقع أن هناك سياسة عامة متصلة الحلقات متساندة يشد بعضها بعضاً ترمى إلى أغراض واضحة معينة .

وقد كانت الوظائف مستقرة إلى حد قبل الثورة ثم صارت قلقة مقلقلة كأنما أصابها مس من الشيطان ، ولا شك أن الثورة والاضطراب الطبيعى الذى نفثته فى الحياة العامة ، ولا شك أن تكاثر الأحزاب وتعددها ووجود الحياة البرلمانية كان لها أثرها فى « تفاعلات » الوظيفة وتقلب الوجوه عليها من وصوليين وصرائين واللاعبين على الحبل وماسكى العصا من الوسط ..

وقد أخبرنى رئيس حزب كبير فى سويسرا مرة أن مصيبة الأحزاب أنها تفتح ذراعيها لكل من هب ودب من أنصارها (وكل يدعى حباً للبلى . .) فاذا كانت هذه حال الأحزاب فى أوروبا فكيف تكون حالها فى مصر ؟ فى أوروبا يجد الحزب بفضل كثرة « الرجال » نقطة توازن لحيائه ، أما فى مصر حيث الرجال قليل ، وإن تكاثر الطغام ، فان حياة معظم أحزابنا الداخلية مسرح تمثل عليه فى مضطرب ضيق ألوان المهازل والمآسى والمطامع التى لا تربطها رابطة بمبادىء الحزب وأغراضه

فالشعابين والذئاب والأفاعى تكاد تجدها تمسى حثيثاً صباح مساء ، وتزحف وتدب ، وتتزاحم ، وتجتمع وتتفرق ، وتنطوى وتنتشر فى كل حزب وفى كل ناحية من نواحى المجتمع ولكن من خلف ستار

محمد صبرى